

مشروع النشر المشترك



كتاب الاستبصار في عجائب الامصار

نشر وتعليق

الدكتور سعد زغلول عبد الحميد

كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار

وصف مكة والمدينة ، ومصر ، وبلاد المغرب

لكتاب مراكشي من كتاب القرن السادس الهجري (١٢ م)

نشر وتعليق

الدكتور سعد زغلول عبد الحميد

أستاذ التاريخ الاسلامي بكلية الآداب بجامعة الاسكندرية سابقا

الاستاذ بكلية الآداب بجامعة الكويت



طباعة ونشر
دار الشؤون الثقافية العامة ، أفاق عربية.

حقوق الطبع محفوظة
تفنون جميع المراسلات
لرئيس مجلس إدارة دار الشؤون الثقافية العامة

العنوان :
العراق - بغداد أعظمية
ص . ب ٤٠٣٢ - تليكس ٢١٤١٣ هاتف ٤٤٣٦٠٤٤

مقدمة

لنا أول من يعنى بكتاب الاستبصار . فنذ حوالى قرن نشر الفرد فون كرممر الجزء الخاص منه بالمغرب نقلا عن مخطوط كان في حوزته (١). ولكن هذه النشرة غير كاملة : إذ تنقصها الفصول الخاصة ببلاد شَمَارَة ، واستقرار الأدارسة بالمغرب ، وزندقة برغواطية ، ومدينة سجلماسة ، وبداية العبيديين القواطم ، ومدن دَرَعَة وأَعْمَات ونَقِيس وتِنَمَل ومَرَاكُش ، وكذلك الفصول الخاصة ببلاد السوس المتاخمة للسودان (دون ذكر بلاد السودان نفسها) . وإلى جانب ذلك فإن نشرة فون كرممر تحتوى هنا وهناك على بعض النقص مما كبر حجمه أو صغره . وبعد ذلك بحوالى خمسين عاما نشر ا. فانيان ترجمة فرنسية كاملة لهذا الجزء نفسه مصحوبة بهوامش وتعليقات ، واستخدم طبعة فون كرممر ، ومخطوطى الجزائر ، ومخطوط باريز (٢). ومع أن فانيان عمل في ترجمته على تكملة نشرة فون كرممر وسد الثغرات التي كانت بها إلا أن ما قام به لا يغنى عن النص العربى ، ولا يرضي حاجة المشتغلين بالدراسات العربية .

هذا إلى جانب أن الجزء الذى بقي من الكتاب دون نشر كبير ومهم ، يبلغ حوالى نصف النص العربى الكامل . وهو ينقسم على قسمين : الأول ويبلغ الثلث خاص بالأماكن المقدسة في مكة والمدينة ؛ والثانى خاص بمصر وعجائبها .

وهكذا تحدد عملنا — الذى يهدف إلى إكمال ما قام به كرممر وفانيان — فى نشر النص الكامل لكتاب الاستبصار ، ثم ترجمة الجزء الخاص بالأماكن المقدسة ومصر إلى الفرنسية .

Alfred Von Kremer, Kitab al - Istibsar fi 'Aja'ib al - Amsar : (١)
Description de l'Afrique par un géographe arabe anonyme du VI^e siècle de l'Hégire,
Vienne, 1852.

E. Fagnan, L'Afrique septentrionale au XII^e siècle de notre ère; Extrait (٢)
du recueil des notices et mémoires de la société archéologique de Constantine, 1900

المؤلف :

وما يدعو إلى الأسف أننا نجهل مؤلف كتاب الاستبصار . فباستثناء ابن أبي زرع ، صاحب كتاب روض القرطاس ، الذى يذكر عنوان الكتاب ^(١) لم يشر أى كاتب آخر إلى الكتاب أو إلى مؤلفه . هذا كما أن المؤلف لا يمدنا خلال كتابته بأية معلومات تكشف لنا عن شخصيته . وهنا نجد ثلاث كلمات تعبر عنه وهى : " المؤلف " أى صاحب الكتاب ، " الناظر " ثم " الواضع " ولها معنى كلمة المؤلف . وعلى ذلك فسنتكى بالعناية بكلمتى " المؤلف " و " الناظر " . هل تعنى الكلمتان شخصية واحدة أو شخصيتين مختلفتين ؟ يمكن أن تكون كلمة الناظر لقبا كان يحمله المؤلف وبهذا تدل " المؤلف " و " الناظر " على شخص واحد . ولكن هذا الافتراض غير محتمل إذ لا نعرف " الناظر " لقبا فى تلك الفترة . وقد يكون معنى كلمة " الناظر " قريبا من معنى كلمة " المراجع " أى الذى أعاد النظر فى الكتاب ونظمه وأعطاه شكله الأخير . وهنا تعنى كلمة الناظر شخصا آخر غير المؤلف . وهذا ما تؤيده الفقرة التالية التى تحتم الكتاب (ص ٢٢٦) : " قال الناظر : هنا انتهى ما وجدته من هذا الموضوع ، ولقد أحسن واضعه ورتب ما حقق ، وهذا لعمري أقرب وأخصر من غيره ، ففيه ما فى غيره وليس فى غيره ما فيه . وحققت وطرزت كتاب الواضع بما قيدت فى هذه المواضع ، وأنا مؤمل أن أتفرغ لوضع كتاب كامل يحتوى على ذكر بلاد المغرب وممالكها إلى هذه الأيام السعيدة الإمامية ، وأضيف إليها ما رفعتة للحضرة العلية من مفاخر هذا الأمر العالى - أيد الله دوامه - سنة ٨٠ [٥] [= ١١٨٤ - ١١٨٥] ، وهو ما يزيد عندى من فتوحاته المستأصلة لشأفة الأعداء ... " .

(١) يذكر ابن أبي زرع كتاب الاستبصار عندما ينقل عنه جزءا خاصا بمدينة فاس (أنظر روض القرطاس ، ص ٢٤) . ولما كان هذا الجزء لا يوجد فى الكتاب كما هو بين أيدينا اليوم فإن هذا يدعو إلى الظن أن كتاب الاستبصار إما أن يكون قد وصلنا ناقصا أو مختصرا .

وأيا ما كان فلما نعتبر " الناظر " هو المؤلف الحقيقى للكتاب بصورته التى وصلتنا ، فهو قد لجأ إلى كتاب قديم نجهل صاحبه ، فوضع له المقدمة ، ورتب فيها منهجه (من وصف الأماكن المقدسة ومصر وبلاد المغرب) ، وهو قد نقح الأصل وحققه وأضاف إليه ، ثم ختمه . وهو يعد بإخراج كتاب خاص بتاريخ المغرب إلى أيامه . وفى الكتاب فقرات تبين أن الناظر عاش على عهد يعقوب المنصور الموحدى ، وأنه كان ينظر بعين الولاء لأحد كبار رجال الدولة حينئذ وهو الشيخ أبو عمران بن أبى يحيى بن وقتين الذى يهدي إليه الكتاب ويطلب منه حسن الرعاية (ص ٢٠١) . ويظهر أنه كان يصنف الكتاب فى سنة ٥٨٧ (١١٩١) كما يفهم من بعض إشاراته (ص ١٣٨) ، وخاصة بمناسبة سفارة ابن منقذ رسول صلاح الدين إلى الخليفة المغربى (ص ١٠٧) ؛ وبمناسبة العمليات الحربية ضد بنى غانية بإفريقية (ص ١١١) . ولكنه يتضح أيضا أن الكتاب كان موضع تنقيحات تالية بالنسبة لهذا التاريخ ، والمثل لذلك زيارة ابن منقذ . فهذه المناسبة يعود صاحب الكتاب ، بعد أن يذكر أنه كتب ذلك فى رمضان سنة ٥٨٧ (سبتمبر - أكتوبر ١١٩١) ، فيقول إن رسول صلاح الدين ترك العاصمة المغربية فى ١١ من المحرم سنة ٥٨٨ (٢٨ من يناير ١١٩٢) .

هذا وتدل التفصيلات التى يمدنا بها عن مكناسة وفاس ومراكش على معلوماته الغزيرة عن هذه المدن . فلا شك أنه عاش فيها إن لم يكن أصله منها ، فهو لا يكتفى بالوصف الدقيق للعواصم المغربية بأمبراطورية الموحدين على عهده ، ولا بالأعمال الإنشائية التى تمت على عهد يعقوب وسلفيه ، بل يقترح خططاً عمرانية أخرى تهدف إلى نشر الرخاء فى هذه المناطق .

وزيادة على ذلك فإن المعلومات التى يعطيها عن الحملة العسكرية ضد بنى غانية فى إفريقية تتفق بشكل غريب مع إحدى الرسائل الرسمية الصادرة من ديوان يعقوب المنصور ، والتى يقتطف منها بعض الفقرات (ص ١٥٩ وهامش ١) . وهو عندما يتكلم عن بلاد السودان يقول إنه اطلع على الرسائل

الرسمية الصادرة باسم غانة ملك هذه البلاد إلى يوسف بن ناشفين (ص ٢١٩)؛ ومعنى هذا أن سجلات المرابطين القديمة كانت في متناول يده؛ أو وصلت إليه صور منها هي الأقل.

من كل ذلك يمكننا أن نفترض أن المؤلف "الناظر" كان يشغل وظيفة لدى يعقوب المنصور كانت تمكنه من الاطلاع على مجرى الأمور في ديوان الخليفة أو في بلاطه. وهنا يمكننا أن نذهب إلى أبعد من ذلك فنظن أنه ربما كان صاحب الرسالة الرسمية نفسه أي ابن محشرة (١). يؤيد ذلك ما يظهره المؤلف من آيات الولاء والخضوع للخليفة وسلفيه، ذلك الولاء الذي لا يصدر إلا من خادم مخلص للموحد.

الكتاب :

إن النظرة السريعة إلى كتاب الاستبصار تبين أن موضعه بين كتب المكتبة الجغرافية العربية. ورغم ذلك فإنه من الصعب وضعه في موضعه الصحيح بين أصناف الكتب الجغرافية المعروفة : من كتب الأبطال والعروض، وكتب تقويم البلدان، وكتب المسالك والممالك، أو كتب العجائب (٢). والحقيقة أننا لو أخذنا بعنوان الكتاب، وهو « كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار » لوجب وضعه بين كتب المجموعة الأخيرة. ولكن الأمر ليس كذلك؛ إذ هو ليس كتاب جغرافية خالصة. فرغم تاريخ تأليفه المتأخر نسبياً نلاحظ أنه يحتوي على خليط من التاريخ والجغرافية من كل لون، مما يجعله أشبه ما يكون بكتب الجغرافية من النوع البدائي الأول.

فن وجهة النظر الجغرافية - ولهذا السبب وحده - يمكن أن يقال بشكل عام إن الكتاب ليس من كتب الجغرافية العلمية المبتكرة، فهو غير مخصص

(١) أبو الفضل جعفر بن محمد بن علي بن طاهر بن تميم القيسي المعروف بابن محشرة (٥٤١ - ١١٤٦/٥٩٨ - ١٢٠١). أنظر E. Lévi-Provençal, un recueil de lettres officielles almohades, étude. p. 9 et note 22.

(٢) أنظر R. Blachère, Extraits des géographes arabes, Paris, 1932؛ سعد زغلول عبد الحميد، ملاحظات عن مصر كما رآها ووصفها الجغرافيون والرحالة المغاربة، مجلة كلية آداب الاسكندرية، سنة ١٩٥٤، ص ٩١.

لعجائب البلدان، كما يمكن أن نتوقع، وإنما هو مصنف يحوى معلومات دقيقة وأخبار عامة وأساطير طريفة، جمعت بعضها إلى جانب بعض بغرض تقديم وصف سهل لطيف مستساغ للقارئ لا تثقله الدقة العلمية المتعبة والتي لا تهم سوى الإحصائيين.

المصادر :

إن مما يعين على معرفة المصادر المختلفة التي أخذ عنها المؤلف معلوماته أن نأخذ بعين الاعتبار أن الكتاب ينقسم إلى ثلاثة أقسام مختلفة هي : الأماكن المقدسة ومصر وبلاد المغرب.

والجزء الأول عبارة عن وصف مكة والمدينة، والهدف منه هو تصوير شعائر الحج. والمؤلف يعنى فيه بوصف مكة عناية بالغة، فهو يعدد ضواحيها وثلاثها، والجبال المحيطة بها. ثم هو يصف بكل دقة الكعبة ومقاييسها وبابها والحجر الأسود بها. ثم هو يستطرد في وصف المسجد الحرام، ويصف بئر زمزم؛ وهو خلال ذلك يشرح مناسك الحج. وإلى جانب هذا يصف المساجد الأخرى مثل مسجد الحنيفة ومسجد المزدلفة. وفيما يتعلق بالمدينة يستطرد المؤلف بنفس الشكل عند الكلام عن مسجد النبي وقبره المبجل، ومسجد قبا؛ وينهى وصفه بالكلام عن قبور الشهداء في سفح جبل أحد.

وهذا الجزء عظيم الأهمية نظراً لمعلوماته الدقيقة وطريقته العلمية؛ ولكننا لانعرف من أى المصادر استقيت مادته. فالمعلومات التي يمدنا بها عن مكة مختلفة عن معلومات الأزرقي (القرن الثالث الهجري = ٩ م) التي ينقلها ابن رسته (نهاية القرن الثالث = ٩ م)، وهي تختلف كذلك عن معلومات ابن جبير المعاصر لمؤلف الاستبصار؛ والمعروف أن ما كتبه الأزرقي وابن جبير يعتبر أهم ما كتب عن مكة والكعبة وأكثره أصالة. وهنا نجد أن المؤلف لا يدين بشئ لذين الكاتبين. ويمكن بعد هذا أن نفترض أنه نقل عن البكري الذي كتب في سنة ١٠٦٧/٤٦٠ كتابه المعروف بالمسالك والممالك. والحقيقة أن كتاب البكري هو المصدر الرئيسي لصاحب الاستبصار

بالنسبة للجزء الخاص بمصر والمغرب ، ولكن ضاعت من كتاب البكرى
الفصول الخاصة بالأماكن المقدسة ؛ وهكذا فلا سبيل إلى القول بأن صاحب
الاستبصار نقل هذا الجزء أو شيئا منه عن البكرى أو لم يفعل . وفيما يتعلق
بوصف المدينة ومسجد النبي لنعرف أيضا المصدر الذي أخذ عنه الاستبصار ،
ومعلوماته تختلف عما كتبه ابن رسته وابن جبير . وهنا نجد أن المؤلف يقول
إنه في سنة ١١٣٣/٥٢٨ - ١١٣٤ كان يوجد في رواق المسجد وطاء طبرى
(ص ٤١) . وهذا يحملنا على الظن أن الجزء الأول من الاستبصار نقله مؤلفه
سنة ١١٩١/٥٨٧ عن مصدر لم يصل إلينا كتب سنة ٥٢٨ أو بعد ذلك .

أما الجزء الثاني من كتاب الاستبصار فيوضع بصفة عامة ضمن ما كتب
عن عجائب العالم : فكل ما يحويه عبارة عن غرائب وأشياء مدهشة فريدة
في نوعها . وزيادة على ذلك نلاحظ أن خطة الفصول الخاصة بمصر تنقسم
على فترتين : فترة مصر القديمة ، التي تنقسم بدورها على فترتين يفصل بينهما
الطوفان ؛ ثم فترة مصر الحديثة أى العربية . وتبدأ الفترة الأولى بوصف عام
للبلاد ، وتنتهى بظهور الإسلام وفتح مصر على أيدي العرب . والفترة الثانية
خاصة بوصف المدن المصرية ، وتبدأ بقصة الفتح منقولة عن ابن عبد الحكم .
والحقيقة أن هذه التقسيمات ليست مقبولة إلا بصفة عامة ، وذلك أن المعلومات
الجغرافية والتاريخية ، القديمة منها والحديثة ، تختلط وتتداخل خلال التقسيمات
الصغيرة بعد ذلك بشكل لا يدع مجالاً للتفرقة بينها .

والمؤلف يستخدم في تصنيفه لهذه الفصول خمسة مصادر مختلفة يذكرها
في بعض الأحيان ، وهى : المسعودى (توفى ٩٥٦/٣٤٥) ؛ وابن وصيف - شاه
الذى يظن أنه فارسي الأصل وأنه كان يسكن بلدة اخميم ، الذى يكتب حوالى
سنة ١٠٠٠ للميلاد (أواخر القرن الرابع الهجرى) (ص ٦٠ هامش ٢) ،
وكان عالما بتاريخ مصر القديمة - حسب مفهوم ذلك التاريخ في العصور الوسطى
بطبيعة الحال ؛ وابن عبد الحكم ؛ ثم البكرى . وأخيراً هناك معلومات الناظر
الشخصية وهى تتعلق في معظم الأحيان بالأحداث التى عاصرها ، وهو فى كل
مرة يسبقها بكلمتى : " قال الناظر " . والسؤال الذى يتبادر إلى الذهن هو :

هل أخذ المؤلف معلوماته مباشرة عن المصادر التى يذكرها ؟ هنا نلاحظ
أن القطع الباقية من كتاب البكرى والخاصة بمصر (مخطوط المكتبة الوطنية
بباريز ، القسم العربى ، رقم ٢٢١٨) تشبه بشكل واضح ، من حيث الخطة
ومن حيث التفصيلات ، الفصول المماثلة من الاستبصار . وهذا يجعلنا نعتقد
أن صاحب الاستبصار نقل عن كتاب البكرى معلوماته التى أخذها عن المسعودى
وابن وصيف - شاه وابن عبد الحكم . وهذه الملاحظة لا تمنع من أن يكون
المؤلف قد قرأ هذه الكتب التى كانت شائعة فى عصره ، وأن يكون قد أخذ
منها معلومات أضافها إلى ما كتبه البكرى . ورغم أنه لا يذكر كتاب الإدريسي
فالظاهر أنه تأثر به فى أكثر من موضع . والمؤلف عندما يعالج قصة الفتح
العربى لمصر ينقل عن ابن عبد الحكم كما سبق أن نقل البكرى ؛ وفيما يختص
بمصر القديمة يذكر ابن وصيف - شاه وينقل عنه . وفى مجال التاريخ القديم
هذا لا ننتظر من المؤلف شيئا جديدا ، وذلك على عكس ما كنا ننتظره منه
من المعلومات الجديدة عندما يعالج موضوع المدن المصرية ، كما فعل بالنسبة
لمدن المغرب ، وهذا ما لم يفعله . فالصليبية فى الشام كانت على أشدها
والمدن المصرية كانت مسرحاً لعدد من المآسى التى كان لها صداها فى المغرب
ولكن المؤلف الذى خصص صفحات - فى آخر هذه الفصول - للصليبية
وانتصار صلاح الدين اكتفى بنقل الوصف التقليدى للمدن المصرية كما فعل
المسعودى وابن عبد الحكم والبكرى . وأكثر من هذا فإنه يؤخذ عليه أنه كاد
يوقع القارئ فى الخطأ عندما أهمل ذكر المصدر الذى نقل عنه ، وغىب شكله
إلى حد ما ذاكراً تاريخ الوقت الذى كان يكتب فيه هو نفسه . والمثال لذلك
هو معلومات المسعودى عن مدينتى تنيس ودمياط التى يذكرها صاحب
الاستبصار ويختتمها بالشكل التالى :

" ويسكن بجزيرة تنيس ودمياط نصارى هم الآن تحت الذمة بحمد الله ،
ونحن فى سنة ٨٦ [٥] = [١١٩٠] " (ص ٨٨) ؛ كما لو أن هذه الحقيقة
كانت واقعة على أيامه أو كما لو أنه حققها بنفسه . وهو فى الحقيقة لم يعرف

أن تنيس كانت هدفا لعدد من غارات الصقليين والصلبيين ، وأن أهلها جلوا عنها في سنة ٥٨٨ [= ١١٩٢] عندما كان يعيد النظر في تأليفه (هامش ١ ص ٨٨) .

وما أن يترك المؤلف مصر ليعالج بلاد المغرب والسودان حتى يتخلص من آثار الماضي التي تسلطت على نفسه وقلمه ، فهو يسجل ما يشاهده ويعطى وصفا أكثر دقة . وإذا ما راعينا أنه كان مغربيا وبالتالي عارفا بالبلاد التي هي موطنه ، فهمنا بسهولة أن هذا القسم من الكتاب يفوق في أهميته ما سبقه من الأقسام .

هنا نجد أن المصادر التي يأخذ عنها الكاتب معلوماته والتي يذكرها هي ، المسعودي والبكري - وهذا الأخير يعتبر المصدر الأول للقسم الثالث من الكتاب خاصة . هذا إلا أن مجهود المؤلف لا ينكر ، فهو ينتهج منهجا خاصا به ، ويعطى معلومات شخصية في غاية الأهمية ، لاسيما عن إفريقية والمغرب الأقصى .

أهمية الكتاب :

يعتبر الكتاب مصدرا للمعلومات متنوعة الألوان من جغرافية وتاريخية وأثرية . وهو يسهب في وصف رخاء مصر الزراعي ، الذي يرجع إلى النيل ، ويؤكد بصفة خاصة خصوبة منطقة الفيوم . والفيوم تجذب انتباهه بفضل عمليات المياه فيها ، وهذه تزيد من مزارعها وفواكهها . وفيما يتعلق بمنطقة الفرما يذكر أن تمرها يعد من عجائب الدنيا . أما عن معادن الزمرد الواقعة بين مدينة قوص ومدينة أسوان فهي موضوع خصص لاسترسال قلمه وإسهابه . وهو بعد ذلك يعنى بصناعة النسيج في دمياط وتنيس ، حيث كانت تصنع أردية لا تدخل في نسجها خيوط الذهب ، ويساوى الرداء منها مع ذلك مائة دينار . وكانت حرفة صيد السمك مربحة لأهالي المدينتين . وفي هذا العصر كانت مدينة عيذاب ميناء مهما منه تتجه المراكب نحو الحجاز واليمن والهند وغيرها من البلاد .

وفيها يختص ببلاد المغرب بين الكتاب الثروة الزراعية والمعدنية لكل مدينة مثل : حرير قابس ، وزيت ستفاقص الذي يصدر إلى صقلية وإيطاليا وفرنسا (الأرض الكبيرة) ، ومنسوجات سوسة ، وأصمك بنزرت ، ومرجان تطرقة ، وتمر الواحات وبلاد الجريد ، وذهب البلاد الواقعة بين الواحات ومصر ، وفستق قفصة ، وقمح باجة ، وصوف وجة ، ونحاس فاس ، وزيت مكناسة وضواحيها ، وجلد اللط والملاح ثم السكر ، بصفة خاصة ، التي اشتهرت بها بلاد السوس ، والتي كانت تصدرها إلى كل بلاد المغرب والأندلس وإفريقية ، وكذلك النحاس المصنوع والعسل والنبيذ والدقيق والعنبر الممتاز . وعندما يتكلم عن بلاد السودان يستطرد في ذكر الشب الأبيض وحجر المغناطيس .

ومن الناحية التاريخية يحتوي الكتاب على معلومات مختلفة في طبيعتها ، وفي قيمتها : كالقصص التاريخية القديمة المنقولة عن كتب معروفة أو مفقودة وهي من طبقة الأساطير ذات القيمة الأدبية فقط ؛ ومثل الوثائق التاريخية المعاصرة ذات الأهمية البالغة .

والقسم الأول الذي يصف الأماكن المقدسة بشكل مطول مهم بالنسبة لتاريخ الفن ، ولاسيما إذا نظرنا بعين الاعتبار إلى ندرة المصادر الخاصة بالآثار ، مما يجعل مهمة مؤرخ الفن من الصعوبة بمكان .

والقسم الخاص بمصر يعطينا فكرة عن الروح التي كانت تسيطر على مفهوم تاريخ مصر القديمة : فكل ما هو قديم ينبغي أن يكون عجيباً دون اعتبار للوثائق الأكيدة الموجودة في متناول الأيدي . وهكذا قبل إن الرصاص استعمل بدل الملاط في بناء الأهرام ؛ وكان يكفي النظر في هذه الآثار للتأكد من أن الأمر ليس كذلك . وترتب على هذه الفكرة أن أصبح الجزء الثاني من الكتاب - على عكس الجزء الأول الجاف - ذا صبغة أدبية بصفة خاصة .

والفصل الخاص بمدينة الإسكندرية مهم جداً ؛ ففيه يصف المؤلف المنار المشهور بإسهاب ، ويبين موقع المدينة من الناحية العسكرية ، وكيف أنها كانت هدفاً لتهديدات الأعداء التقليديين النصارى ، وخاصة الصقليين

وأول ما نلاحظه هو أن الأخطاء الإملائية الكثيرة والنحوية في بعض الأحيان ، وكذلك اختلاف أسماء الأعلام ، تبين أن هذه المخطوطات نقلت في عصر متأخر بالنسبة للمخطوط الأصلية بمعرفة نساخ لم يتألفوا حظا كبيرا من الثقافة . وترتب على ذلك أن اضطررنا إلى الرجوع - في كثير من الأحيان - إلى المؤلفات القديمة ، ومن ذلك أن جامع " الحَيْف " كتب في جميع ما بين أيدينا من نسخ جامع " الحنيفة " (ص ٣٣ وهامش أ) . ورغم اتساع دائرة عملنا نتيجة لذلك فإننا لاندعى أن النص الذي حققناه قد استقام بشكل كامل لاغبار عليه . فإزالت بعض الكلمات بل وبعض الجمل غير دقيقة أو قليلة الوضوح . وقد صادفتنا عبارات يبدو أنها من مصطلحات العمارة الإسلامية وهي غير محددة المعنى عندنا ، وذلك مثل " بحر مُرَخِّم " (ص ١٤ - ١٥) أو " حجارة مطرورة " (ص ٣٣ ، ٣٤) . وقد فهمنا هذه العبارات حسب المعنى العام للجملة . وهكذا أخذنا " بحر مرخم " بمعنى فراغ مكسو بالرخام (الترجمة ص ٩) ، " وحجارة مطرورة " بمعنى حجارة مصقولة محددة أو حجارة مطيئة مزينة (الترجمة ص ٢٠) . ونذكر كذلك كلمات « ثوران من نحاس » (ص ٢٠) ولقد فهمناها على أنها مسرجتان (شمعدانان) من نحاس (الترجمة ص ١٢) ، وجملة " فنازعني في القُرْب والشولى فغلغلبته (ص ١٨٥) " التي فهمناها على أنها : فتناقشنا في أمر سمك التَّن والزَجَر ولكنني فزت عليه . ونذكر أخيرا كلمة " ثليث " (ص ٢٠٠) وهي اسم علم لمدينة في جنوب مراکش قرب سجلماسة ولا نعرف عنها شيئا .

وفيما يختص بالترجمة فقد اجتهدنا في نقل النص العربي إلى الفرنسية دون تصرف . ولم نخرج عن هذه القاعدة إلا في الحالات التي يصعب فيها الترجمة الحرفية ، ففي هذه الحالات حاولنا نقل المعنى مع الحرص على عدم الابتعاد عن النص على قدر الإمكان . ولقد لاقينا في هذا صعوبات كثيرة : كالتباين الخفيف بين مفهوم الكلمات ذات المعنى الواحد ، والصور التي يصعب نقلها كما هي ، والأساليب الخاصة بكل لغة . وعلى الجملة فقد كانت روح كلا اللغتين هي المهتدة في كل هذه الحالات . ويمكن إعطاء أمثلة كثيرة

منهم . أما عن جهاد صلاح الدين وانتصاره على الصليبيين ، وسفار ابن منقذ إلى المنصور الموحدي ، فقد شغلت عدة صفحات مهمة كما نأمل لو أنها زادت إلى أكثر من ذلك .

والقسم الأخير الخاص بالمغرب مهم جداً بالنسبة لتاريخ الموحدين . فصاحب الكتاب يندد بمرارة بثورة علي بن غانية في إفريقية ، ويدافع عن موقف سيده الأمير . أما المعلومات المتعلقة بالمغرب الأقصى فهي أصيلة ومهمة للغاية : مثل المجهودات المعمارية التي قام بها أمراء الموحدين الثلاثة الأول ، وخاصة يعقوب منهم : كعمليات المياه ، وبناء المساجد والقصور ، ثم إنشاء الحصون في مدن مراکش وفاس ومكناسة .

من كل ما تقدم يتبين أن كتاب الاستبصار يعتبر حقيقة موسوعة تاريخية جغرافية مختصرة .

تحقيق النص :

وقد رجعنا في تحقيق النص إلى مخطوطات ثلاث : واحدة بالمكتبة الوطنية بباريز (القسم العربي رقم ٢٢٢٥) ، وهي بخط مغربي مقروء ، ولكن تنقصها الورقات الأولى والأخيرة ، هذا بالإضافة إلى بعض النقص الذي يوجد فيها من حين لآخر ، واثنتان بالمكتبة الوطنية بمدينة الجزائر : أولاهما (رقم ١٥٦٠) في حالة جيدة وهي كاملة ، والثانية (رقم ٣٢١٦) رغم أنها كاملة ، إلا أنها في حالة رديئة وذات خط غير مقروء في بعض الأحوال . وإلى جانب ذلك رجعنا أخيراً إلى طبعة فون كرم (von kremer) الخاصة بالمغرب والتي نشرها عن مخطوط لا نعرف مصيره ، وهي تحتوي على كثير من النقص .

ولقد رمزنا لمخطوط باريز بالحرف " ب " ولمخطوطي الجزائر - حسب ترتيبهما المذكور - بالحرفين " ج " ، " م " ، ولطبعة كرم بالحرف " ك " .

لتوضيح هذه العقبات ، ودون البحث بعيدا في أعماق النص يكفى النظر في الصفحات الأولى من الكتاب ، حيث تكثر أمثلة هذه الصعوبات .

ولقد حرصنا على أن نزود النص بالهوامش المناسبة . والغرض من هذه الهوامش إما تحديد المؤلفات السابقة التي تعتبر من المصادر الرئيسية للنص ، وإما مقارنته بها . ولهذا السبب أيضا ذكرنا في الهوامش بعض المصنفات المهمة من عصور متأخرة .

تقديم الطبعة المغربية

لما كانت طبعة جامعة الاسكندرية (1958) لكتاب الاستبصار في عجائب الأمصار، وهو الكتاب الذي كان أصلا رسالة ثانوية للدكتوراة التي تقدمنا بها إلى جامعة باريس في يونيو 1951، قد نفذت منذ مدة طويلة . ولما كان الدارسون لتاريخ مكة والمدينة ومصر وبلاد السودان الغربي في العصور الإسلامية حتى القرن السادس الهجري / 12م في حاجة إلى النظر في هذا الكتاب، فضلا عن حاجة دارسي تاريخ أقطار الشمال الأفريقي الإسلامية وجغرافيتها، وهو الأمر الذي تنبه إليه منذ مدة طويلة بعض الزملاء الأفاضل والناشرين في تونس وفي مصر، فإنه يسرني أن تقوم الآن دار النشر المغربية بمدينة الدار البيضاء، مشكورة، بمعرفة مديرها السيد البوري محمد سعيد بإعادة نشر الكتاب في طبعة مغربية جديدة، أرجو أن تكون مفيدة للمشتغلين بالتاريخ الإسلامي وتاريخ الشمال الأفريقي - إن شاء الله . هذا، ولقد قمنا بتصحيح الأخطاء القليلة بطبعة الاسكندرية الأولى، وعلى الله التوفيق .

سعد زغلول عبد الحميد

الكويت في 1985/1/6

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد

كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار

الحمد لله عالم الأسرار ، غافر الأضرار ، الواحد القهار ، العزيز الجبار ، المزه الذي لا يقبض يديه سهاد الليل والنهار ؛ نحمده حمد معترف بوحدانيته ، ونشكره شكر مغترف من بحر نعمته ، متقلب في ظل رحمته . ونفصل على نبيه سيدنا محمد المبعوث بالآيات الباهرة ، والبينات القاهرة ، الآخذ عن النار بالحجزات ، الداعي إلى سبيل ربه بالآيات البينات ، وعلى آله الأخيار ، وأصحابه الأبرار ، صلاة باقية إلى يوم الدين . ونرضى عن نجله الأطهر (١) ، وسليبه الأبر ، الإمام المهدي (١) ، الذي جدد رسم الدين بعد البلى ، وجاهد في سبيل الله حق جهاده وأبلى ، وإلى طريق الحق [دعا] الثفري والجفلي ؛ وعن الخلفاء الراشدين ، أئمة الهدى ، ومصابيح من رشد واهتدى . ونوالى الدعاء لخليفهم المبارك الأسعد ، سيدنا أمير المؤمنين يعقوب (٢) بنصر تتصل أسبابه بسعادته ، وفتح يسوقه القدر وفق لإرادته .

وبعد ، لما كان العلم أنفس ما يقتنى ، وأشرف ما به يعتنى ، لم يزل ينقله خلف عن سلف ويحمله ذو شرف عن ذى شرف ، وجب أن يكون أفضل ما يهديه مهد أو يستهديه مهدي ، رغبة في الاتسام برسمه ، والارتسام والدخول

(١) ج : الأظهر .

(١) المهدي محمد بن تومرت مؤسس دولة الموحدين (توفي ٥٢٢ - ٥٢٤ ؟ =

١١٢٨ - ١١٣٠) .

(٢) أبو يوسف يعقوب المنصور حفيد عبد المؤمن بن علي وثالث خلفاء الموحدين .

وملكه من سنة ٥٨٠ الى سنة ٥٩٥ هـ (١١٨٤ - ١١٩٩) .

في رعيته ، والاستثناء بحيازة مآثر من تواريخ الأمم ، وسير العرب والصم ،
إذ كان المرء يقف منها على أخبار من غير ، وآثار من ذهب وذو ،
ويشاهد ممالك ذهبت وبادت (١) ، كأنها عادت إلى الحياة أو كادت :

لم يبق شيء من الدنيا أسرى به إلا الدفاتر فيها الشعر والخبر
مات الذين لهم فضل ومكرمة وفي الدفاتر من أخبارهم أثر

وقديما وضع (ب) الناس التواريخ ورتبها ، ودونوا الأخبار وكونوها ،
حرصا منهم على نظم فرائدها وتقييد شواردها ، وما زال واضعوها
يتقبلون بين إكثار وإقلال ، وإسهاب واختصار ، وكلهم يجرى على طريقة
إلى غاية يضيفها ويسطرها . وكثيرا ما خلد خدم العقلاء ملوك أزمنتهم
بالتواريخ المؤلفة والتواليف المزخرفة ، تفننا لمساتهم وترضيا لمبراتهم ،
ولولا ذلك لم يحصل الآخر على علم الأول ، ولا عرفت أخبار الملل والدول .
ولذلك رأيت الشيخ الأجل المعظم ، الأغر الأسنى ، الأجدد المكرم ،
أبا (ج) عمران بن الشيخ الأرفع ، المرحوم أبي يحيى بن وقتين (١) أدام
الله علامه ، ووصل مجدهم وسراهم ، قد أبرز على الفضلاء فضلا ، وأربي
على النبلاء نبلا ، وزاد على أهل زمانه في العلم والحلم ، وغبطة بالعلم ووصل
العلماء ومراضاة الفقهاء . وكانت همته السامية إلى طراف الأخبار ، وإيثار
أهل الآثار ، إلى أن شادت بذلك الرفاق ، وامتألت بحديثه الآفاق ،
ونازعتني الرغبة والتصدى لشكر النعمة ، إلى أن أطرز باسمه كتابا يجمع
بين الأخبار والصحائف ، ويأخذ بطرفي شرائد الطرائف ، متضمنا بذلك
إحسانه ، راجيا بذلك فضله وامتثانه بمنه حسبا أردته . و[لما] اتسق وصفه على
ما اخترت ، سميت بكتاب الاستبصار في عجائب الأمصار ، بعد أن قصدت
في أكثره التحقيق واطرحت في مستودعه التلقيق .

(١) ج : أبادت . (ب) ج : وضما . (ج) ج : أبر .

(١) إننا لا نعرف شيئا عن هذين الشخصين ، ولكن يمكن أن يقال ، من اسميهما ، إنهما
من أصل بربرى .

وابتدأت بحمكة شرفها الله تعالى ، وما يجب ذكره من وصف حرمتها ، وأسماء
الجبال المحيطة بها ، وذكر أرباضها ، ووصف المسجد الحرام بحسب الوسع ،
وذراع الكعبة من خارج ، ووصفها من داخل . ووصفت الصفا والمروة ، وعرفة
ومزدلفة ، ومضى وجبل الرحمة ، مع شريعة إبراهيم عليه السلام وصفة بطن
محمّد إلى غير ذلك من المناسك ، وصفة مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم
بالمدينة . ووصفت منبره عليه السلام ، ووصفت عدد أبواب المسجد ،
وجميع ما فيه من العمدة (١) وعدد ما فيه من القناديل ، ووصف روضته
عليه السلام . ثم وصفت بقية المدينة ، وروضة عثمان رضى الله عنه
ووصفت مسجد قبا ، وقبور الشهداء (ب) بأحد رحمة الله عليهم تبركا بذلك
وتيمنا بالاستفتاح به :

ثم عدت إلى بلاد مصر وما فيها من العجائب ، ووصفت
نيل مصر وعدد أمياله ، من وسطه إلى موقعه ، وذكرت بناء
الأهرامات والبراني (ج) ومن بناها ، وصورتها وطولها وعرضها وما صنع
فيها من العجائب ؛ وذكرت من عمرها من الملوك قبل الطوفان وما نزل
بها بهذا الطوفان ؛ وذكرت فتحها في أيام سيدنا عمر (د) بن الخطاب
رضى الله عنه . ثم عدت إلى مدينة الإسكندرية ، ووصفت بناءها وصفة
منارها وصفة المرأة التي كانت بها وبناءها وتداول الملوك عليها .

ثم ذكرت بلاد إفريقية وما فيها من العجائب ، ووصفت مدينة قرطاجنة
وآثارها وعجائبها ، ووصفت البلاد إلى آخر بلاد المغرب . وقسمت أقطارها
قسمين ، ورتبتها صنفين : فمنها الصحراوية أو ما قاربها ، والساحلية وما يليها .

ولم أذكر شيئا مما سقته إلا ما كاد يعتقد على أكثره الإجماع ،
ويتفق عليه العيان والسماع ، وللمولى أدام الله تأييده ووصل سعوده ،
أن يقدر عبده فيما أورده ، ويحقق فيما رجاه أمله ومعتمده ، فإنه وإن كان
قد أنفذ وسعه في الاختيار ، وتوسط بين الإقلال والإكثار ، حرى بالاحسان

(١) ج : العمود . (ب) ج : الشهود . (ج) ج : الهارمات والبربرى .
(د) ج : عمار .

ظنا، ويرى التغميض عن مناته سنا، إذ هو فيما ذكر كن حمل النهر إلى هجر^(١).
وملك استعدنا كل غريبة، فأنت غريبة في عيون الغرائب. وهذا حين
أبتدىء بذكر ما أردته فيما أوردته، مستعينا بالله سبحانه، راجيا صفحه
وغفرانه، والله سبحانه يمتع الأدب ببقاء المولى، ويشكره ما منح الخلق
من يده وأولى:

الناس يهدون على قدرهم وإننى أهدى على قدركما
يهدون ما يفنى وأهدى الذى يبقى على الأزمان من فخركما

ذكر حدود حرم مكة شرفها الله^(٢)

حد الحرم من ناحية المدينة من ذى طوى^(٣) على ثلاثة أميال من مكة،
وحده من طريق جدة على عشرة أميال، وحده من طريق اليمن على سبعة
أميال، وحده من طريق العراق على ستة أميال، وحده من طريق الطائف
على أحد عشر ميلا فعدد أميال الحرم ٣٧ ميلا^(٤)، ودور الحرم
حول مكة ٧٣٣ ميلا^(٥)؛ وكان النبي صلعم بنى بالحرمين ١٥ مسجدا^(٦).

(١) هجر هي مدينة البحرين المشهورة بكثرة تمرها. أنظر أبو الفدا (الجغرافية)، الترجمة،
ج ٢ ص ١٣٧ وهامش ٢، ٣؛ البكرى، المعجم، ج ٢ ص ٨٢٥، ٨٢٧.
(٢) الحرم هو المنطقة المقدسة بمكة. ولكن هذا الاسم يطلق أيضا على أرض المدينة ومن هنا
سميت المدينتان الحرمان.

(٣) ذو طوى هو أحد أودية مكة على طريق المدينة وفيه توقف النبي عند فتح مكة. أنظر
البكرى، المعجم، ج ٢ ص ٤٥٧؛ الأزرق، ص ١٩٧، ٤٢٦، ٥٠٠؛ ابن جبير،
ص ١١٢؛ العبدى، المخطوط، ص ٨٩ - ب؛ الفاسى، ص ٨٣.

(٤) هذا المقياس لا معنى له وذلك أن المؤلف أضاف طول المسافات التي تبين حدود الحرم
في الاتجاهات المختلفة، بالنسبة إلى المسجد الحرام، بعضها إلى بعض.

(٥) هذه المسافة مبالغ فيها من غير شك والظاهر أن الصحيح هو ٧٣ ميلا فقط، وذلك أن
الأرض الحرام تمتد حول مكة مسيرة يوم تقريبا. أنظر أبو الفدا، الترجمة، ج ٢
ص ١٠٥ هامش ٥.

(٦) أنظر البكرى، المعجم، ج ٢ ص ٥٥٩.

وصف مكة شرفها الله وأرباضها وأسماء الجبال المحيطة بها

جبل أبى قبيس^(١) وهو جبل أدكن (أميل إلى البياض)، في رأسه
منار يذكر أنه منار إبراهيم عليه السلام. وفي أصله الصفا^(٢) ومن عليه
يرقى إليه، ليس^(٣) له مرق إلا على أربعة مواضع: على الصفا، وعلى شعب
عمر، وعلى شعب على^(٤) رضى الله عنهما، وعلى شعب أجياد
الصغير^(٥)، ليس لأبى قبيس طريق يرقى إليه إلا من هذه الأربعة
مواضع. وهو أحد الأخشبين^(٦) فيما يقال، ويقال إنه أول جبل خلقه
الله تعالى ووضع في الأرض. وإنما سمي بأبى قبيس لأن رجلا كان يسكنه
على قديم الدهر يكنى بأبى قبيس فنسب إليه ذلك الجبل. وهو أقرب الجبال
إلى المسجد الحرام، يقابل من مكة ويقابل من الكعبة الركن الأسود.

(١) ج: لرسو.

(١) أبو قبيس هو أحد جبال مكة المشهورة ويشرف على المدينة من جهة الشرق. وحسب
الروايات المتداولة كان هذا الجبل يطلق عليه، قبل الإسلام، اسم «الأمين» لأنه حفظ الحجر
الأسود من الطوفان. وهو أحد الجبلين المعروفين باسم «الأخشب». ياقوت، معجم البلدان،
ج ٢ ص ١٠٢؛ ابن جبير، الرحلة، ص ٨٠.

(٢) أنظر فيما بعد ص ٢٩ وهامش.

(٣) الشعب هو الوادى الصغير أو الطريق يخترق الجبال. وهو الاسم الذى أطلق على أزقة
مكة والطرق التي تؤدي إليها. أنظر ياقوت، معجم البلدان، ج ٣ ص ٢٩٦. وعن شعب عمر
وشعب على أنظر الأزرق، ص ٤٧٩، ٤٨٦.

(٤) هو الطريق الذى يقع مباشرة إلى جانب جبل «أبو قبيس» والذى يؤدي إلى الطريق الآخر
المسمى «أجياد الكبير». ياقوت، معجم البلدان، ج ١ ص ١٣٨؛ الأزرق، ص ٤٩٤؛
العبدى، المخطوط، ص ٩٣ - أ. وعن الاسم «أجياد» أنظر فيما بعد ص ٨.

(٥) الأخشب (ومفردها أخشب وهو الجبل الصعب أو الأرض الخشنة: ياقوت، معجم
البلدان، ج ١ ص ١٥٩ - ١٦٣؛ العبدى، المخطوط، ص ٩٢ - ب) هما جبال مكة الشيران:
أبو قبيس وجبل الخدمة (الأزرق، ص ٤٣، ١٣٩، ٤٧٨. وعن الخدمة قارن ص ٦).
وحسب ابن رسته (ص ٢٩) كان موقف إبراهيم الخليل بين هذين الجبلين حين دعا أهل اليمن
والشام والشرق والمغرب إلى الحج إلى مكة والمسجد الحرام. وقارن البكرى، المعجم، ج ١
ص ٧٨؛ الاصطخرى ص ١٧؛ ابن حوقل، ص ٢٥؛ المقدسى، ص ٧٧.

ثم جبل الخندمة^(١) وهو الجبل العالى المستعمل على أبي قبيس من ناحية الشرق ، وهو (١) جبل أحمر محجر فيه صخرة كبيرة بيضاء كأنها معلقة تشبه الإنسان إذا نظرت إليها من البعد ، تراها من المسجد الحرام من باب السهميين (ب) الصغير . وفي ذلك الجبل تحصن أهل مكة يوم القرمطى (ج) (٢) . وأسفل (د) من ذلك الجبل ، بينه وبين الجبل غار ، شعب على رضى الله عنه .

ثم الجبل الأبيض^(٣) الذى على الأبطح إلى باب مِثَى^(٤) ، ومن ذلك الجبل إلى الجبل الأحمر السور ، وجعل هنالك بابين من خشب مصفحين بالحديد ، وهما على المعلى (ر) (٥) وهما المعروفان بباب منى . وعند هذا الباب آبار (س) بعيدة الرشا يستقى الناس منها ، وماؤها ليس بعذب

(١) "وهو" ناقصة في ب (ب) "السهميين" ناقصة في ب. (ج) ج : القرموطى . (د) ب : أسهل . (ر) ج : المعالى . (س) ب : آبار .

(١) عن الخندمة أنظر الهامش السابق ؛ ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٢ ص ٤٦ ؛ البكرى ، المعجم ، ج ١ ص ٣١٩ ؛ العبدى ، المخطوط ، ص ٩٣ - ١ ؛ ابن الأثير ، ج ١ ص ١٨٨ . وتقول الرواية إن اسم هذا الجبل مأخوذ من الفعل «خدم» وذلك أنه عندما فتح النبي مكة خرج مع المسلمين رجل كان يسكن هذا الجبل ، ووعد امرأته بأن يعود لها بخادم من أسرى المسلمين . فأطلق على الجبل بعد انتصار المسلمين اسم الخندمة تذكرا لهذا الحدث (الأزرق ص ٤٧٩) . (٢) القرمطى المذكور هنا هو أبو طاهر سليمان بن أبي سعيد الجنابي الذى استولى على مكة (في ٨ من ذى الحجة سنة ٣١٧ = ١٢ يناير سنة ٩٣٠) وأخذ الحجر الأسود إلى الأحساء . أنظر ابن الأثير ، ج ٨ ص ٣١٧ ؛ القاسى ، ص ٢٤١ ؛ G.-Demombynes, Pèlerinage, p. 49. sq. دائرة المعارف الإسلامية ، ج ٢ ص ٨١٣ .

(٣) قارن الأزرق ، ص ٤٧٩ ، ٤٩٠ ؛ ياقوت ، معجم البلدان ، ج ١ ص ١٠٩ .

(٤) تسمى نهاية أزة مكة التى تؤدى إلى الأبطح (وهو الجزء المنخفض من منطقة مكة) الذى يشرف على موقع المسجد الحرام «أبواب المسجد الحرام» . وأحدها هو باب منى . وعن الآبار القريبة من هذا الباب أنظر الأزرق ، ص ٤٧٩ .

(٥) الملل هو الجزء المرتفع إلى جهة الشرق من مكة وهو الذى يشرف على الأجزاء المنخفضة المسماة بالمسفلتة إلى جهة الغرب . العبدى ، المخطوط ، ص ٩٢ - ب ؛ ابن جبير ، ص ١١٣ ؛ G.-Demombynes, Pèlerinage, p. 197 .

هذا ، وهذا الجبل الآخر متصل من مسجد الخيف^(١) (١) إلى الحجون^(٢) وفيه التلة العليا ، وعند أصل التلة بقيع مكة^(٣) . وفي شعب منه الخشب^(٤) فى حوز الشعب الذى يقابل الخيف الذى كان ينزل فيه من سلف من الصدر الأول عندهم من منى إلى آخر أيام التشريق^(٥) ، فيصاؤون الظهور والمصر والمغرب والعشاء الآخرة ، وكذلك يدخلون مكة . وقد صبح عن (ب) النبي صلعم أنه فعل ذلك^(٦) .

(١) فى النص : "الخيفين" ، أنظر فيما بعد ص ٣٣ .

(ب) ج : مل .

(١) أنظر فيما بعد ص ٣٣ وهامش ١ .

(٢) الحجون هو الشعب أى الطريق الذى يؤدى إلى الملل حيث مقبرة مكة . ومن هذا الطريق دخل النبي إلى مكة حين فتحها . ابن جبير ، ص ١٠٩ ، ١١٠ ؛ G.-Demombynes, Pèlerinage, p. 314 ؛ ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٢ ص ٢١٥ ؛ العبدى ، المخطوط ، ص ٩٥ - ١ . قارن اليعقوبى ، ص ٣١٤ ؛ البخارى ، ج ١ ص ٣٩١ ، ٣٩٩ ؛ القاسى ، ص ٨١ .

(٣) بقيع مكة هو أخفض أنحاء المدينة إلى حيث يتجه ماء السيل ، وهو الذى يسمى أيضا الأبطح والمخصب وذو طوى . ياقوت ، معجم البلدان ، ج ١ ص ٩٢ ، ٩٥ ، ج ٤ ص ١٢٥ ؛ البخارى ، ج ١ ص ٤٤١ .

(٤) أنظر الهامش السابق وهامش ص ٣٢ . وهو المكان الذى تلقى فيه الجمرات (ياقوت ، معجم البلدان ، ج ١ ص ١٤٩) . ويطلق عليه أيضا اسم المخصب لأن ماء السيل يتطلق إليه ويجمع فيه الحصباء القاسى ، ص ٩٤ ؛ اليعقوبى ، ص ٣١٤ . وانظر G.-Demombynes, Pèlerinage, p. 207 .

(٥) عن أيام التشريق أنظر فيما بعد ص ٣١ . أما عن شرح اسم التشريق الذى تعرف به الأيام العشرة الأولى من شهر ذى الحجة فيقول المسعودى : « وقد اختلف الناس فى علة تسميتها أيام التشريق وهى أيام منى ولياليها . فقالت طائفة إنما سميت أيام التشريق لأنهم كانوا يذبحون الذبائح بمنى ويشرقون (يعرضون) اللحم فى الشمس . وقال آخرون إنما سميت أيام التشريق لأنهم كانوا يفرجون بمنى وغيرها كالمزلفة إلى مصليات لهم فى فضاء من الأرض يسمونها المشارق واحدها مشراق فيسبحون ويدعون . وفيه قول آخر وهو أن طائفة زعمت أنه مأخوذ من ذبح البهائم وهو الشرق » . مروج الذهب ، ج ٣ ص ٤١٩ ، ٤٢٠ . وقارن تنوير الحوالك ، ص ٣٥٧ .

(٦) قارن تنوير الحوالك ، ص ٣٥٥ ؛ البخارى ، ج ١ ص ٤٣٩ ؛ ابن جبير ، ص ١٧٧ ؛ العبدى ، المخطوط ، ص ١٠٢ - ب .

ثم الجبل الذى يظهر دار الندوة (١) يسمى قُصَيْقِيْعَان (٢)، وهو الذى يقابل
أبا قبيس ، وهو جبل أخضر . وإنما يسمى قعيقعان لأن مَضَاضَ بن جرهم
نزل به ، ونزل السُمَيْدَعُ بن جرهم بجبل أجياد ، فدارت بينهما حرب عظيمة
في تلك الأيام ، فكانت أجياد - أعنى من سكن بها وهو السُمَيْدَعُ وآله -
أول من جاد بالدم في الحرم ودعا إلى القتل ، وقالت العرب فيها أجياد
لأنها (١) أول من جادت بالدم .

ثم جبل أجياد (٣) ، وهو الجبل العالى الأخضر الذى بغربى المسجد الحرام
في رأسه منار يذكر أن أبا بكر رضى أمر ببناؤه (٤) ، ينادى عليه المؤذن
في رمضان ، ويقابل من الكعبة الباقى ، ويخرج إليه من باب إبراهيم
عليه السلام (٥) . وهو يقابل قعيقعان من ناحية الغرب .

(١) "لأنها" ناقصة في ب .

(١) عن دار الندوة أنظر فيما بعد ص ٢٦ . بناها قصي بن كلاب وجعل بابها أمام الكعبة .
وفي هذه الدار كان يجتمع القرشيون لمناقشة شئونهم . ولقد اشتراها معاوية ثم دخلت تدريجيا
في المسجد الحرام على عهد عبد الملك بن مروان ثم الوليد بن عبد الملك بعده ثم سليمان بن عبد الملك ،
وكذلك على عهد المنصور العباسي إلى أن انتهى الأمر بإدخالها جميعا في المسجد على عهد المعتضد بالله
سنة ٢٨١ هـ = ٨٩٤ . الأزرق ، ص ٦٥ ، ١٨٨ ، ٣١٠ ، ٣٤٠ وتابع . قارن ياقوت ،
معجم البلدان ، ج ٢ ص ٥٢٤ .

(٢) رغم أن المؤلف يظهر رغبته في شرح أصل اسم هذا الجبل إلا أنه لا يفعل . وتقول
الرواية إنه أثناء الحرب بين السُمَيْدَعِ بن جرهم وبين الحارث بن مضاض بن جرهم ، جعل هذا الأخير
يقبرع الرماح والدروع ومنها أنت كلمة قعيقعان بمعنى رنين . المسعودى ، مروج الذهب ، ج ٣
ص ٩٩ ؛ الأزرق ، ص ٤٥ ؛ قارن الاصطخرى ، ص ١٥ ؛ ابن حوقل ، ص ٢٣ ؛
اليعقوبي ، ص ٣١٤ ؛ المقدسى ، ص ١٠٣ .

(٣) قارن الأزرق ، ص ٤٥ وتابع ، ص ٤٩٤ ؛ ياقوت ، معجم البلدان ، ج ١
ص ١٣٨ ؛ المسعودى ، مروج الذهب ، ج ٣ ص ٩٩ . فيما يتعلق باسم أجياد يقول الأزرق وياقوت
إنه مأخوذ من كلمة جِيَاد بمعنى خيل . وذلك أن السُمَيْدَعِ عندما خرج للحرب كان معه جياد مسرجة
حسنة وبها سمي المكان .

(٤) لا يقول الكتاب شيئا عن هذه المذلة التي بناها أبو بكر .

(٥) عن باب إبراهيم أنظر فيما بعد ص ٢٤ - ٢٥ .

ثم جبل ابن عمران (١) ، وهو الجبل الأسود الذى بين أبي قبيس وأجياد ،
وهو خلفهما . ويظهر من البعد كأنه بينهما ، يقابل من الكعبة الجدار
الباقى ، وهو أميل إلى الركن الباقى قليلا .

ثم جبل البُكَاء (٢) ، وهو خارج على الجبال المحيطة بمكة ، وهو في العطف
الذى في آخر ذى طوى ، عن يمينك وأنت خارج تريد التمتع (٣) .
وهناك عن يسارك المتكا (٤) ، وهو الحجر الذى قعد عليه النبي صلعم
واستراح عند إقباله عليه فيما يذكر أهل مكة ، روه عن مشيختهم .

عدد أرباض مكة شرفها الله

ولمكة أربعة أرباض منها الحَجُونُ (٥) وما حوله إلى المَرَوَّة (٦) ، وربض
قُصَيْقِيْعَان (٧) وما حوله إلى باب ذى طَوًى (٨) ، وربض أجياد الكبير (٩)

(١) يسمى الأزرق (ص ٤٩٤) هذا الجبل « رأس الانسان » . قارن ياقوت ، معجم البلدان ،

ج ٢ ص ٧٣١

(٢) لا يقول الكتاب شيئا عن هذا الجبل .

(٣) يبدأ أهل مكة الإحرام من أجل العمرة من هذا المكان . وهو يسمى أيضا « مسجد
عائشة » وهو ليس من الحرم . ياقوت ، معجم البلدان ، ج ١ ص ٨٧٩ ؛ البكرى ، المعجم ،
ج ١ ص ٢٠٠ ؛ ابن جبير ، ص ١١١ (G.-Demombynes, Pèlerinage, p. 195) ؛
قارن ابن حوقل ، ص ٢٥ ؛ المقدسى ، ص ٧٧ .
(٤) لا يقول الكتاب شيئا عن هذا الحجر .

(٥) أنظر فيما قبل هامش ٢ ص ٧

(٦) المروة أشهر تل في مكة واسمه مرتبط دائما باسم تل « الصفا » ، فيبينها بحرى طقس
من أهم طقوس الحج والعمرة ألا وهو السعى . القرآن ، سورة ٢ ، آية ١٥٣ ؛ البخارى ، ج ١
ص ٤١٤ ؛ البكرى ، المعجم ، ج ٢ ص ٥١٩ ؛ ابن جبير ، ص ١٠٧ ؛ العبدري ، المخطوط ،
ص ١٠٢ - ١ ؛ ابن رسته ، ص ٥٤ ؛ الاصطخرى ، ص ١٦ ؛ اليعقوبي ، ص ٣١٥ ؛
المقدسى ، ص ٧٤ ؛ ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٢ ص ٥١٩ .

(٧) أنظر فيما قبل هامش ٢ ص ٨

(٨) أنظر فيما قبل هامش ٣ ص ٤

(٩) أنظر فيما قبل ص ٨ وهامش ٣

مع شعب أبي بكر رضه إلى المسفلة^(١) إلى باب اليمانيين ، ثم إلى الأبطح^(٢) وما حوله من باب مني^(٣) إلى شعب على مع شعب عثمان^(٤).

ذرع الكعبة كرمها الله من خارج^(٥)

طول وجه الكعبة وهو الشق الذي فيه الباب ، من الركن الأسود إلى الركن الشامي ٢٧ ذراعا^(٥) . وعند الثلث الباقي من هذا الجدار من ناحية الركن الشامي ، يوقف منبر الخطيب يوم الجمعة ويرفع في سائر الأيام ، وهو منبر كبير مفصل على ثلاثة قطع^(٦) . وطول مؤخرها وهو الشق الغربي ، من الركن اليماني إلى الركن الغربي ، ٢٧ ذراعا — طول الذراع الذي به هذا الذرع (ب) ٢٠ أصبعا^(٧) . وعرضها من ناحية اليماني إلى الركن الأسود ٣١ ذراعا

(١) ب ، ج ، بطح . (ب) القراءة في ج : الذي هو الذرع .

(١) أنظر فيما قبل هامش ٥ ص ٦

(٢) أنظر فيما قبل هامش ٤ ص ٦

(٣) أنظر فيما قبل ص ٥ والهوامش

(٤) لا يتفق الكتاب على مقاييس الكعبة والمسجد الحرام . ودون أن نحاول تحقيق المقاييس الصحيحة لكل فترة ، ودون تأييد الواحد منهم أو الآخر، سنكتفي بالإشارة إلى أهم رواياتهم . ولكن يحسن الإشارة إلى أن كتاب الأزرق يعتبر المصدر الرئيسي في هذا المقام . فلقد نقله ابن رسته وذكره معظم الجغرافيين والرحالة مثل ابن جبير وياقوت والعبدري والفاسي .. الخ . ويحسن أيضا أن نشير إلى أن ما كتبه المؤلف هنا يختلف عن بقية المصادر . وهذا يدعو إلى الظن بأنه عمل شخصي أي مبتكر ، نقله صاحب الاستبصار عن مصدر لم يصل إلينا . وهو هنا وعلى عكس بقية أجزاء الكتاب لا يذكر اسم أي مؤلف .

(٥) يقول ابن الفقيه (ص ٢٠) دون دقة إن طول المسجد ، في وقته ، ٢٧ ذراعا ؛ وعلى العكس من ذلك يروي الأزرق أن طول هذه الواجهة ٢٥ ذراعا (ص ٢٠٥) ؛ ابن رسته ، ص ٣٠ ؛ اليعقوبي ، ص ٣١٦ . وحسب ابن خردادبه (ص ١٣٣) يكون طوله ٢٤ ذراعا وشبر وعرضه ٢٣ ذراعا وشبر (المقدسي ، ص ٧٢) .

(٦) قارن ابن جبير ، ص ٩٣ - ٩٤ .

(٧) حسب الأزرق (ص ٢٠٣) يكون طول هذه الواجهة ٢٥ ذراعا (ابن رسته ، ص ٣٠) . وكذلك الحال بالنسبة لليعقوبي (ص ٣١٦) وابن عبد ربه (العقد الفريد ، ج ٣ ص ٣٦٣) . ويقرر الأزرق (ص ٣٠٣) أن طول الذراع هنا هو ٢٤ أصبعا (ابن رسته ص ٣٠) .

ونصف ذراع^(١) ، وعرضها من ناحية الشام وهو الشق الشامي وهو الذي عليه الميزاب^(٢) (١) ، من الركن الغربي إلى الركن الشامي ، ٢٤ ذراعا^(٣) .

هذا ذرع البيت من خارج . وذرعه من داخل : طول الجدار (ب) الذي يقابلك إذا دخلت البيت الذي فيه محاريب الفضة^(٤) ، وهو الذي صلى عليه النبي صلعم ، من الركن الغربي إلى الركن اليماني ، ٢٢ ذراعا^(٥) . وطول الجدار الذي فيه الباب ، من الركن الأسود إلى الركن الشامي ، ٢٩ ذراعا^(٦) ؛ بسبب (ج) الركن الذي بناه الحجاج بن يوسف في داخل البيت في الركن الشامي ، وجعل فيه سلما من داخل الركن يرقى منه إلى ظهر الكعبة لتعليق الكسوة^(٧) . وعرض الجدار الشامي ، الذي بين الركن الغربي والركن الشامي ، ١٥ ذراعا ونصف ذراع^(٨) ، نقص ذرع (د) الجدار

(١) ج : الضراب (ب) ج : الجبال الجدار (ج) "بسبب" ناقصة في ب . (د) "نقص ذرع" ناقصة في ج .

(١) طول هذه الواجهة ، حسب الأزرق (ص ٢٠٣) ، ٢٠ ذراعا (ابن رسته ص ٣٠) ؛ وكذلك الأمر بالنسبة لليعقوبي (ص ٣١٦) وبالنسبة لابن عبد ربه (العقد ، ج ٣ ص ٣٦٣) . أما ابن الفقيه فيقول إن طولها ١٥ ذراعا وشبر .

(٢) أنظر فيما بعد ص ١٩ وقارن الأزرق ، ص ٢٠٤ ؛ ابن رسته ، ص ٣٠ ؛ ابن جبير ، ص ٨٧ ؛ ابن عبد ربه ، العقد ، ج ٣ ص ٣٦٣ ؛ ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٤ ص ٢٧٩ . (٣) قارن الأزرق ، ص ٢٠٣ ؛ ابن رسته (٢١ ذراعا) ؛ اليعقوبي ، ص ٣١٦ (٢٢ ذراعا) .

(٤) لا يقول الكتاب شيئا عن هذا الحائط حيث توجد محاريب الفضة . ولكننا نظن أنها عبارة عن بابين صغيرين من فضة أشبه بالشباكين الملتصقين بركن الحجر الأسود . ابن جبير ، ص ٨٤ .

(٥) قارن الأزرق ، ص ٢٠٤ ؛ ابن رسته ، ص ٣١ (٢٠ ذراعا و ٦ أشبار) .

(٦) الأزرق ، ص ٢٠٤ ؛ ابن رسته ص ٣١ (١٩ ذراعا و ١٠ أشبار) .

(٧) بعد أن فتح الحجاج مكة وفيها ابن الزبير هدم ، بأمر الوليد بن عبد الملك ، الكعبة التي كان ابن الزبير قد بناها (حسب ما كانت عليه أيام إبراهيم الخليل . انظر البخاري ، ج ١ ص ٤٠١) ، وأعاد بنائها كما كانت من قبل مع بعض الإصلاحات مثل عمل السلم الذي يؤدي إلى سطح الكعبة . قارن الأزرق ، ص ١٤٦ ؛ ابن رسته ، ص ٣٣ ؛ ابن جبير ، ص ٨٤ (G. Demombynes, Pèlerinage, p. 52) ؛ العبدري ، الخطوط ، ص ٩٨ - ١٠٠ .

(٨) قارن الأزرق ، ص ٢٠٤ ؛ ابن رسته ، ص ٣١ (١٥ ذراعا و ٨ أشبار) .